

منهجية اللغة العربية من المعيارية فالوصفية فالتفسيرية

The methodology of Arabic language from normative to descriptive to interpretive

*هنادي عماد العطية

جامعة قطر

Ha1601399@qu.eduqa

تاريخ النشر 2024/03/31

تاريخ القبول 2024.03.21

تاريخ الوصول 2024.03.16

ملخص:

يتناول البحث حديثاً عن المعيارية والوصفية والتفسيرية، وتقدم تعريف لهم، ومقارنة بينهم مع ضرب الأمثلة؛ لمعرفة أي المناهج الأكثر استخداماً، وفيما يمتاز كل منهم عن الآخر. وقد تمت الدراسة بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي في محاولة للبحث عن إجابة للسؤال البحثي الآتي: هل اعتماد المنهج التفسيري وحده في هذه الدراسة سيؤدي بالغرض؟ أم أن التفسيرية ستشق طريقها من خلال عبورها بالمحطتين المعيارية والوصفية؟ وقد قُسمت الورقة إلى ثلاثة مباحث أردفت بالخاتمة. استُهلّ المبحث الأول بمدخل للمعيارية، وورد فيه الحديث عن باب الاستقامة من الكلام والإحالة، والتدليل على أنواعه بأمثلة خارجية. وأردف بالاستدلال في النحو العربي. أما المبحث الثاني فقد عُنون بالوصفية وحدودها، ونشأتها، وأهميتها، ومن ثم عُرج على أسس المنهج الوصفي في كتاب سيويوه، واختتم المبحث بملامح الوصفية في نظرية دي سوسير، من خلال الحديث عن العلاقات الجدولية والسياقية. أما عن المبحث الثالث، فقد عُني بالتفسيرية، ونشأتها ومفهومها، ومبادئ الفهري في نظريته النحوية في المنهج التفسيري. وتوصلت الباحثة إلى نتائج تفيد بترجيح المنهج الوصفي والتفسيري على المنهج المعيارية في دراسة اللغة.

الكلمات المتاحة: (المعيارية - الوصفية - التفسيرية)

Abstract

The research discusses normative, descriptive, and interpretive methods, providing a definition for each and drawing comparisons between them with examples to

determine the most commonly used approach, and to highlight the distinctiveness of each. The study was conducted based on the descriptive-analytical method in an attempt to answer the following research question: Will relying solely on the interpretive approach in this study serve its purpose? Or will the interpretive method carve its path by integrating both normative and descriptive stages? The paper is divided into three sections, followed by a conclusion. The first section begins with an introduction to normativity, discussing the concept of rectitude in speech and referentiality and illustrating its types with external examples. This is followed by evidence in Arabic syntax. The second section, titled Descriptivism and Its Limits, traces its origins and significance, then explores the foundations of the descriptive approach in the book of Sibawayh, and concludes with the features of descriptivism in Ferdinand de Saussure's theory, through the discussion of tabular and contextual relationships. The third section addresses interpretivism, its genesis, concept, and the principles of Fairclough's theory in his grammatical approach to interpretive methodology. The researcher arrives at conclusions suggesting a preference for the descriptive and interpretive approaches over the normative method in the study of language.

Keywords: normative- descriptive-interpretive

● مقدمة:

لطالما بقيت دراسة اللغة العربية منذ الأزل مبتورة الصلة بالمجتمع الذي يتكلمها. وإغفال كثير من اللغويين عن دراستها رغم أنها تعد مظهرًا روتينيًا يمارسه الفرد في سلوكه اليومي، وحقلاً للتجارب؛ ولذا فهي تعد أساس الأنشطة الثقافية، وبها توسم ملامح المجتمعات المعاصرة. ولن تتوالى هذه اللغة عبر العصور إلا إذا استفضنا في دراستها وتبّعها منذ العصور الجاهلية؛ لأن التراث هو الأساس الذي تُستقى منه الأصول، واللغة هي الأداة التي تضمن الاستمرار الشعبي عبر العصور. وانطلاقاً من ذلك فقد استهل العلماء دراستهم للغة بمنهج معياري، اعتمدوا في على القاعدة، مسترشدين فيها للتفريق ما بين الاستعمالات السوية وغير السوية، بالقياس على ما قيل من أفواه العرب والفصحاء، نائين بذلك عن الوصف، ومحتكمين إلى مبدأ "قل، ولا تقل" في استخلاصهم القواعد التي تقتاد لتعلم اللغة. فكان هدفهم التعليمي هو الغرض الذي وضعوه نصب أعينهم، وانطلقوا منه في دراستهم. لكن دراسة اللغة بهذه الآلية لم تكن كافية، فثمة مسائل بقيت هائمة في اللغة لم تجد طريقاً لها، فجاء المنهج الوصفي؛ ليخرج عن دائرة المعيارية إلى تعرف النظام اللغوي من خلال اعتماد الباحث الوصفي على الملاحظة التي تكشف له الستار عن مكونات هذا النظام، بدءاً من الأصوات وانتهاءً بالتراكيب. ولم تقاسم المعيارية في هدفها، وإنما كانت تصبو في دراستها إلى هدف نظري محض؛ يميزها عن النحو المعياري التقليدي. لكن نظرتها ودراسته للغة كانت قاصرة، فلم تتمكن من بسط أبحاثها على كل جوانب اللغة؛ لأنها ركزت بحثها في فهم بنيتها فحسب، نائية عن تفسير مدلولات جملها، ودراسة التأويلات المحتملة للكلام. حتى جاءت التفسيرية، فسدت الثغرة التي كانت تترقبها دراسة اللغة لتكتمل. وتمثل التفسيرية في النحو التوليدي اللغوي تشومسكي الذي حاول

أن يتجاوز حدود الوصف المستند إلى الملاحظة، ليفسر هذه الظواهر الخاضعة للملاحظة، ويستشرف آفاق الأخرى بالاعتماد على القوانين العامة في صياغة المفاهيم. فيحاول أن ينقب عن العناصر الأساسية في البنية العميقة التي قد تعجز البنية السطحية عن كشفها وتفسيرها. فدرست التوليدية ما وراء التفسير من خلال كشفها عن العلاقات الغيبية التي تربط الظواهر بعضها إلى بعض، واستخلاص القوانين التي تفسرها. وانطلاقاً مما سبق، فإن أهداف البحث تكمن في محاولة تعرّف منهجية دراسة اللغة عبر استعراض المناهج الثلاثة لدراساتها؛ بغية فهم أعمق لطبيعة المنهج الذي تستند إليه اللغة العربية، وتعتمده في سبيل تطورها. ولتحقيق هذا الهدف، سننطلق في ورقتنا البحثية من محاولة الإجابة عن سؤال إشكاليّ رئيس وهو:

ما مدى تمكّن التفسيرية من سد الفجوة التي أحدثتها المعيارية والوصفية في دراسة اللغة؟ وهل اعتماد المنهج التفسيري وحده في هذه الدراسة سيفي بالغرض؟ أم أن التفسيرية ستشق طريقها من خلال عبورها بالمحطتين المعيارية والوصفية؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، اتبعتُ المنهج الوصفي التحليلي، فقسمت ورقتي البحثية إلى ثلاثة مباحث: المعيارية وحدودها، والوصفية وحدودها، والتفسيرية. استهللت المبحث الأول بمدخل للمعيارية، وتحدثت فيه عن باب الاستقامة من الكلام والإحالة، ودلت على أنواعه بأمثلة خارجية. وأردفته بالاستدلال في النحو العربي، متناولة القياس أمودجاً مع التعريف به، وذكر قواعده، والتدليل عليها بأمثلة خارجية. أما المبحث الثاني فقد عنوانته بالوصفية وحدودها، وكما المعيارية استهللت المبحث بمدخل للوصفية ونشأتها، وأهميتها، ومن ثم عرّجت على أسس المنهج الوصفي في كتاب سيويو، واختتمت المبحث بملامح الوصفية في نظرية دي سوسير، من خلال الحديث عن العلاقات الجدولية والسياقية. أما عن المبحث الثالث، فقد خصصته بالتفسيرية، وتحدثت فيه عن نشأتها ومفهومها، ومبادئ الفهري في نظريته النحوية في المنهج التفسيري، وأعقبته خاتمة بتطبيقات المنهج التفسيري في تقدم المفعول به على الفعل، وظاهرة الالتباس التركيبي عند تشومسكي. وانتهى بي المطاف في الورقة إلى صوغ جملة الاستنتاجات التي توصلت إليها خلال هذه الدراسة. وحسبي بهذه المقدمة الوجيزة بياناً.

• الدراسات السابقة:

- قُدّمت دراسة للدكتور أحمد الشايب عرباوي، (2020م)، بعنوان: ترقية اللغة العربية الحديثة بين المعيارية والوصفية. وهدفت هذه الدراسة إلى إثبات فعالية المنهجين: المعيارية، والوصفي في تطوير اللغة العربية، والتمييز بين مجالات تطبيق المنهجين؛ من خلال الإجابة عن الأسئلة البحثية الآتية: أيّ المنهجين أجدى في خدمة اللغة العربية إثراء وترقية؟ وهل اعتماد أحد هذين المنهجين يلغي الآخر؟ وهل هناك منهج ثالث يجمع بين هذين المنهجين يمكن للباحث اعتماده؟ وتوصل الباحث إلى نتائج تفيد بضرورة استخدام المنهجين لترقية العربية وإثرائها، وأنّ الفارق الجوهرى بين المنهجى الوصفى والمعياري هو أنّ الأول يقرب

العامية من الفصحى، بينما يؤصل الثاني التراكيب العربية الحديثة ويهذبها، فضلاً عن ضرورة مراعاة الجمع بين المنهجين في عمليات الترجمة والتعريب.

- نُشرت دراسة للطالبة مريوح رقية، عام (2016م)، بعنوان: تعليمية النحو العربي في ضوء المقاربة النصية. وهدفت الدراسة إلى الكشف عن مدى تأثير المقاربة النصية في تنمية المهارات اللغوية، ودورها في تيسير تعليمية النحو العربي. ومن ضمن الأسئلة والإشكالات التي طرحتها الورقة هي: هل النحو العربي معياري أو وصفي؟ وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي للإجابة عن هذا السؤال البحثي. وخُصّصت الدراسة بنتائج تفيد بانطلاق النحو العربي من المعيارية لتأسيس القواعد النحوية، فضلاً عن تأثره بالمنطق الأرسطي وهو نحو معياري. ولم يغب عن ذهن النحو العربي المنهجين الوصفي والمعياري نظراً لإفادته منهما في التعليل، والقياس، والاستقراء، والتصنيف.
- نشر الدكتور أنور طراد عام (2021م)، دراسة عنوانها: أهمية المنهج التفسيري في دراسة القضايا اللغوية عند داود عبده. هدف في دراسته إلى بيان ضرورة تجاوز الوصف إلى التفسير في تحليل الظواهر اللغوية، فضلاً عن معرفة قيمة المنهج التفسيري في تحقيق أطراد القواعد. واعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والتحليل، والمنهج المقارن. وتوصلت الدراسة إلى نتائج تفيد بعدم كفاية المنهج الوصفي لوضع القواعد، وإنما لابد من الاعتماد على المنهج التفسيري؛ لاعتباره اللبنة الأولى في أي دراسة لغوية.

● المعيارية وحدودها.

تعود سبب تسمية هذا المنهج بالمعياري انطلاقاً من إصراره على الالتزام بمعايير الصواب في رصد قواعد واستعمالات اللغة العربية، وحفظها وتقعيدها؛ خشية أن تلوث باللحن، وتتغير بتغير العصور. وقد اعتمدت المعيارية في استخراجها علم النحو على منهج الاستقراء، فاستقرأت كلام العرب، وأتى هذا الاستقراء أكله نتيجة القواعد التي استنبطت من كلام العرب، وأصبحت مرجعاً لدى المتأخرين منهم. وبعد الاستقراء، قُعدت اللغة فأصبحت القاعدة ومراقبة الفصحى محور تركيز المعياريين، فقل اعتمادهم على النصوص والشواهد تدريجياً، لكنهم اهتموا بالسند في الشعر والنثر، وجعلوه شرطاً رئيساً لقبول النص، وباختلاله يطل الاحتجاج به. وقد أطلق على هذه الفترة مصطلح قرون الأصالة؛ نظراً لأن تفكير علمائها كان متوافقاً مع منطق اللغة. وبدأت جذور المرحلة بالخليل بن أحمد الفراهيدي الذي صقل مناهج المعيارية وطرق تحليلها، حتى انتهت علومها إلى تلميذه سيبويه الذي أمسك بزمامها، ولم يفرط فيها. فأخرج منها كتابه الشهير "الكتاب" وفيه كشف عن أهمية علاقة التراكيب بالمعاني في مستهل كتابه، المعنون بـ "باب الاستقامة من الكلام والإحالة".

- باب الاستقامة من الكلام والإحالة.

درس سيبويه في هذه المسألة العلاقة بين صحة التركيب النحوي، ومدى استقامته في أداء المعنى. وقد قسم هذا الباب إلى خمسة أفرع: أولها المستقيم الحسن، وهو المطّرد الجائز في كلام العرب، وهو الذي لا تشوبه شائبة لغويًا ولا نحويًا. وثاني الأفرع هو المحال، وتكون الإحالة في التناقض، وهو ما لا يجوز استعماله البتة وإن كانت بنيته صحيحة نحويًا، إلا أنها متناقضة في دلالتها ولا تحمل أي معنى. وثالثهم المستقيم الكذب، والاستقامة هنا انعكست في اللفظ دون المعنى، والموصوف بالكذب في هذا الفرع هو المعنى الدلالي، وتستخدم عادة أضرب هذا النوع في المجاز والبلاغة. أما عن رابع الأنواع، فهو المستقيم القبيح، وهو ما لا تتطابق فيه القواعد، على الرغم من عدم اشتماله على اللحن؛ لأن فاعله يكون مرفوعًا، ومفعوله منصوبًا وغيره. لكن قبحه يكمن في موضوعة اللفظ في غير موضعه. وآخر الأفرع هو المحال الكذب، وهو يتعلق بالمعنى، وإن كان تركيبه يُقاس عليه، إلا أن المحال يتمثل في التناقض، والكذب في ذكر الشيء على خلاف ما هو عليه. وبعد هذا الاستهلال الذي اتضح فيه تواءم النحو مع علم الدلالة، سنورد فيما يلي شرحًا لهذه المسألة التي تمثل أشهر ملامح المعيارية. وسندل في الجدول الآتي على كل فرع من فروعها بأمثلة من إنشائنا.

الجدول 3: ملامح المعيارية.

سأخبرك بالأمر لاحقًا / اتصلت بك قبل ساعة من الآن	(1:1:2) المستقيم الحسن.
أخبرتكَ بالأمر لاحقًا / سأصل بك قبل ساعة من الآن	(2:1:2) المحال
وضعتُ الحياة في العلبة / جلستُ على الهواء.	(3:1:2) المستقيم الكذب
لم الثاني أكتب الواجب / الأرض يحترث رأيت فلاحًا	(4:1:2) المستقيم القبيح
سأشربُ الدجاج أمس / مشيتُ ليلاً تحت أشعة الشمس غدًا/ سأزور الشوق أمس	(5:1:2) المحال الكذب

نستنتج فيما أوردناه من حديثنا عن باب الاستقامة من الكلام والإحالة لسيبويه، أنه اعتمد في تحديد أصول الجمل واستقامة الكلام على النحو وليس الدلالة؛ ولذا فإن المعيارية تفرض علينا الأصول اللغوية التي ينبغي لنا أن نتبعها حتى لا نُخترق القاعدة اللغوية. وقد عمد سيبويه في هذا الباب إلى تأصيل اللغة من خلال سنّ القوانين التي تحفظها، وتنقيها من اللحن.

- الاستدلال في النحو العربي: القياس أنموذجًا.

تنوع الاستدلالات في النحو العربي ما بين المنطقية التي تكون مباشرة إذا تكونت من مقدمة واحدة، وغير مباشرة إذا تعدد مقدماتها. وفقهية متصلة بعلم أصول الفقه ومعنية باستنباط الأحكام. ونحوية وهي موضع

حديثنا. والاستدلال النحوي هو الأصول التي قام على أساسها النحو، وهي ثلاثة أنواع: السماع، والاستصحاب، والقياس. حُدد السماع على أساس معايير ثلاثة تمثلت في الانتقاء الاجتماعي، والمكاني، والزمني. وغلب استعماله عند الكوفيين. أما الاستصحاب وهو الدليل الثاني عند سيبويه، والرابع عند السيوطي؛ ويعني إبقاء حال اللفظ على ما يستحقه في الأصل عند عدم دليل النقل عن الأصل. والدليل الثالث القياس الذي يمثل مرحلة تجريدية، وهو موضع حديثنا، وينقسم إلى قياس استعمال تطبيقي، وآخر نحوي نظري. ويختص الأخير بدراسة الأحكام، ويكون موضع دراسة النحاة والمختصين، وينقسم إلى: العلة، والطرء، والشبه. وحتى لا نطيل في تفصيل كل نوع من هذه الأنواع؛ سنخصّ الذكر بباب العلة، وأركانه الأربعة، وهي: المقيس عليه، والمقيس، والحكم، والعلة الجامعة. والمقيس عليه هو ما يمثل الأصل الذي لا يستوجب لصاحبه الخروج عنه، ويميز لنا بين أربعة أنواع من الكلام بحسب المطرد والشاذ منها في الاستعمال. ويراد بالاطراد كثرة السماع والقياس؛ فالأول - السماع - يُعنى بكثرة ما تردد على ألسنة العرب بحيث لا يُرى المقيس عليه نادراً أو شاذاً، والثاني - القياس - يُعنى بموافقة وخضوع المقيس عليه لقاعدة أصلية كانت أم فرعية، ويشترط في المطرد سماعاً ألا يكون شاذاً قياساً؛ نظراً لأن طبيعة القياس تتيح لمستخدم اللغة إنتاج جمل لا حصر لها مع تعدد استعمالاتها. وسنذكر قواعد القياس التي ذكرها تمام حسان مقتبسة من نص ابن جني، مع التدليل عليها بأمثلة شارحة.

1

(1:2:2) مطرد في القياس والاستعمال.

صام محمد/ شربت القهوة / درست فاطمة الدرس...

(2:2:2) مطرد في القياس، شاذ في الاستعمال.

عسى الغويّر أبؤساً؛ ويقصد بها (لعلّ الشر جاء من قبلك). وجاءت (أبؤساً) هنا منصوبة بتقدير "عسى الغويّر أن يكون أبؤساً" فجعلت عسى بمعنى كان، ونزلت منزلتها.

(3:2:2) مطرد في الاستعمال، شاذ في القياس.

نحو (استحوذ) التي يرى فيها جمهور الصرفيين وجوب نقل حرف العلة (الواو) إلى الساكن قبله. وقد ذكر ابن جني في هذه المسألة أن القياس يتطلب إعلال الكلمة، لكن السماع أبطل فيها القياس. وتعد هذه الكلمة شاذة في القياس، لأن العرب تتبع قاعدة نقل حركة الواو أو الياء بعد الصحيح الساكن إلى الساكن قبلها، وتقلب ألفاً؛ كما في (أقوم) و(استقوم)، فالأصح والمطرء فيهما (أقام)، و(استقام). وكذلك في (استحوذ) فالأصل فيها (استحاذ). لكنهم أجازوا اتباع ذات ما استعمل في ذلك، دون القياس عليه.

(4:2:2) شاذ في الاستعمال والقياس.

مثال هذا النوع كلمة (مضوون)، ووجه شذوذها في الاستعمال هو أن العرب لا تستخدم الإتمام في الواوين لثقلها، فتفر منها إلى الياء؛ لكرهية اجتماع الضمة مع الواوين. وشذوذ قياسها يكمن في أن العرب عندما تصوغ

اسم المفعول من الاسم الذي تكون عينه واوًا أو ياءً، تنتقل حركة العين إلى الساكن، وتُحذف الواو الزائدة؛ لتصبح الكلمة على وزن مفعول.

وفي ختام حديثنا عن المعيارية، تبين لنا أنها لا تعتمد على الملاحظة البحتة للغة من منظور موضوعي قائم على البحث العلمي؛ فاللغة عندها مقيد استعمالها بالمعيار، فلا تدرس المعيارية اللغة من واقع ترددها على السنة متحدثيها، وواقع استعمالها. ومن هنا جاء فردينان دي سوسير بمنهجه المناقض للمعيارية، مستندًا إلى المنظور الوصفي في دراسته للغة، ساعيًا في ذلك إلى لفت أنظار اللسانيين إلى الاهتمام في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، معتمدًا في أغلب دراسته على اللغة المنطوقة الخاضعة لجملة من القوانين النحوية الراسخة في الدماغ، المشتركة بين جماعة محددة. داعيًا في دراسته إلى التزام الطابع الموضوعي، ومحررًا النظام اللغوي من القالب المعياري الجامد.

• الوصفية وحدودها.

- النشأة والمفهوم والأهمية.

تعود أولى جذور المنهج الوصفي أو علم اللغة الوصفي للمؤسس فرديناند دي سوسير، في أوروبا، في القرن العشرين. بعد جهوده التي ركز فيها على دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها لمعرفة أسرارها وظواهرها، فعَدَّ المنهج الوصفي تنظيمًا قائمًا بذاته، محاولًا تقنين اللغة من خلال وصفها في فترة زمنية محددة؛ ليتعرف إلى بنيتها وهيكلتها. ويمكننا القول إن الباحث في المنهج الوصفي ينظر للغة بعدّها وجهين لعملة واحدة لا ينفصلان؛ فالوجه الأول هو ما يمثل المادة الخام للتحليل اللغوي عند سوسير، والوجه الثاني ينعكس في شكل هذا التحليل وصورته. ويوصف هذا المنهج على أنه علم ساكن؛ لأن اللغة تدرس فيه كما هي عليه في نقطة محددة من الزمن آنياً، ويتجلى في ثنائية دي سوسير؛ إذ جعل فيه اللسان موضعاً للوصف والدراسة لارتباطه بالاجتماع. وإذا أردنا أن نورد تعريفاً لهذا المنهج، فسنسترشد بما قاله رائد اللسانيات دي سوسير عندما شبهه بلعبة الشطرنج، مبيّناً أن الوصفيين لا يولون اهتماماً بتفاصيل نشأة هذه اللعبة وكيفية تحولها، وإنما يركزون في دراستهم على السياق الداخلي لها؛ من خلال تحديد وظيفة العناصر وموقعها لمعرفة النظام الذي يحكمها. وهكذا في دراسة اللغة يحدد الباحث الوصفي أجزاءها، ويدرسها بمستوياتها المختلفة المتمثلة في: الأصوات، والمقاطع، والأبنية، والدلالات، والتراكيب، والألفاظ. وينظر بعدها في العلاقة التي تجمع هذه المستويات بعضها إلى بعض؛ ليستنبط القاعدة التي تحكمها دون أن يتطرق في دراسته إلى التفسير أو التعليل أو إصدار الأحكام، ولا يُعنى بدراسة تطور الظاهرة اللغوية عبر التاريخ، ولا ينحو منحى المنهج المقارن في عقد المقارنات بين اللغات أو اللهجات.

وقد عرّفه محمد نبيل على أنه الطريقة العلمية في البحث والدراسة؛ لأنه يدرس الظاهرة كما هي عليه في الواقع من جميع الجوانب والمستويات بعيداً عن النزعة المعيارية². ونعقّب على كلام محمد نبيل بقولنا إنه قد وصف المنهج بالعلمية؛ لخلوه من الانطباعات الشخصية التي قد تتباين من شخص إلى شخص، وتجردّه من القواعد والمعايير والتأويلات التي يطرحها دارس اللغة ليصل من خلالها إلى نتيجة ما. فهو علمي في اقتصاره على دراسة

ووصف اللغة كما يشاهدها في الواقع مركزاً على نظامها الداخلي، مستنداً إلى التحليل، ونائياً عن العوامل السياقية المحيطة بها. ويعتمد هذا المنهج في دراسته للظاهرة اللغوية على الوصف الكمي والكيفي من خلال توضيح خصائص ومميزات الظاهرة اللغوية، وتحديد حجم ومقدار ارتباطها مع الظواهر الأخرى، دون أن يفرض في هاتين العمليتين معياراً أو قاعدة ما.

- أسس المنهج الوصفي في كتاب سيويه.³

- السماع:

عدّ سيويه السماع الأساس الذي يعتمد عليه المنهج الوصفي؛ لأنه الخطوة التي تعتمد عليها بقية الأسس، ويشترط فيه أن يكون المسموع من الفصحاء أو الناقل حساً. فاللغة المسموعة عنده هي الطريقة الوحيدة التي تربط البحث اللغوي بالواقع، وتعكس صدق الأحكام اللغوية. ويؤكد على شرطين أساسيين في السماع هما الفصاحة والثقة. ويعد الراوي ومساعد البحث الممثلين الحقيقيين للغة. وينطلق في هذا الأساس من إيمانه بأن اللغة تعد حقيقة اجتماعية، وأن الكم الهائل من الظواهر اللغوية في الاستعمال الواقعي هي التي تعين على استنباط الأحكام اللغوية.

- اللغة والكلام:

ميز سيويه بين ثنائية اللغة والكلام من خلال وصفه اللغة بأنها مظهر اجتماعي، والكلام عمل فردي. وتحقق اللغة عن طريق الكلام. ويصف الكلام بأنه نسق شكلي متناسق، ولذا فقد ركز على دراسة اللغة من خلال الكلام؛ لأنه يمثل النشاط البين للغة.

- اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة:

يركز المنهج موضع الدراسة على اللغة المنطوقة أكثر من اللغة المكتوبة؛ نظراً لظهور التغيرات اللغوية فيها بشكل أدق. ونستدل على هذه الحقيقة في المستويات الصرفية، والصوتية، والنحوية، واللغوية. فكل هذه المستويات لا يمكن للباحث وصفها إلا عن طريق النطق. وهي تعد من سمات التعبير للغة المسموعة، ويطلق عليها مجتمعة مصطلح "الصَوْنِيَّة". ففي المستوى الصوتي قد يتغير معنى الكلمة بتغير الصوتية؛ ككلمتي (سار) و(صار). وفي المستوى الصرفي يلعب النبر دوراً أساسياً في التمييز بين معاني الكلمات في بعض اللغات؛ فمثلاً في اللغة الإنجليزية يغير النبر معنى الكلمة كما في كلمة (August) التي تدل على شهر أغسطس، أو نظيرتها باللاتينية التي تعود على اسم أول امبراطور روماني، كان أفضل القادة، ولذا تقرر أن تكون هذه الكلمة مرادفة لكلمة "جليل". أما في اللغة العربية فيستخدم النبر لدرء اللبس، وتوضيح المعنى المراد، كما في قوله تعالى: "فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ" (القصص: 24). فالنبر في (قى) يُفهم السامع أن موسى سقى الأغنام للمرأتين، ولا يتوهم السامع

أن هناك اثنين فسقا؛ أي صاراً للفسق. ويلعب التنعيم دوراً في إظهار المعاني المتعددة لجملة واحدة؛ ولهذا يقرّ سيويوه على أن اللغة المنطوقة في السياق الاجتماعي تختلف عنها في حالة استقرارها بالكتابة.

- وحدتيّ الزمان والمكان:

يتفق سيويوه مع سوسير في أن الدراسة الوصفية للغة لا بد أن تكون آنية زمانية مقتصرة على زمن بعينه؛ لأن وصف هذه اللغة يسهل عند استقراء معالمها وخصائصها. وقد اتسم المنهج الوفي لسيويوه بالشمولية في تناوله الظواهر اللغوية، فلم يقتصر على لهجة دون غيرها، وهذا ما أتاح لمنهج القدرة على وصف المستويات اللغوية، ومعرفة التباين اللهجي في الظاهرة اللغوية الواحدة.

- الاستقراء:

أفاد سيويوه من الاستقراء في ضبط أنماط الكلام من خلال استخلاصه المبادئ التي تختص بتنظيم الظاهرة اللغوية. ويتطلب الاستقراء في المنهج الوصفي جملة من البيانات المتصلة بالواقع اللغوي، فمن خلال الاستقراء اهتدى سيويوه إلى عدد من النتائج؛ فقسم الكلم العربي إلى مبني ومعرب، وتحدث عن وظائف البنية داخل التركيب، مقسماً الكلمة إلى صوامت وصوائت، واستقرأ أيضاً الجملة العربية، وكيفية تأليف الكلام. وسنذكر استنتاجاً من بين الاستنتاجات التي توصل لها سيويوه في استقراءه؛ لتتضح الصورة: " ليس في الكلام حرف آخره ياء ما قبله مفتوح "

- التصنيف:

يعد التصنيف عملاً منهجياً يقع ضمن وظيفة اللغوي، ويستند إليه الباحث في تصنيفه الوحدات اللغوية بناء على شكلها ووظيفتها. فهو يتعامل مع الظواهر اللغوية؛ بغية معالجتها، وتقسيمها إلى فئات كما فعل سيويوه في تقسيمه الكلم إلى اسم، وفعل، وحرف، فضلاً عن تصنيفه أصوات اللغة ومخارجها. ويعتمد سيويوه وسيلتين أساسيتين في عمله التصنيفي، وهما: التحويل والاستبدال. كما في ربط (أن يكتب) ومصدرها (الكتابة) بفتة واحدة؛ لإمكانية استبدالهما ببعض داخل التركيب. أما عن التحويل فيقصد فيه تحوّل البنية العميقة لبنية سطحية؛ كما في تحويل الواو التي تسبق بالكسرة إلى ياء (موعاد)=(ميعاد).

- المصطلحات اللغوية:

تعد هذه الخطوة أساس النشاط العلمي، وهي تعني اتفاق الجماعة على هذا الأمر، وأن يكون اللفظ المصطلح واضحاً بسيطاً؛ حتى يسهل أمر تداوله، ولا تستقر هذه المصطلحات إلا بعد استقرار العلم وشيوعه. وقد استخدم سيويوه في عرضه المصطلحات أسلوباً متميزاً، وهو اعتماده على الوصف في المصطلحات التي كانت مضطربة إلى حد ما. والتعبير عن الفكرة بأكثر من مصطلح. ونشير إلى أن كل المصطلحات التي عمد إليها سيويوه في كتابه كانت عربية الأصل.

- القياس:

يعد القياس عاملاً أساسياً في وضوح الجانب التطبيقي للمنهج الوصفي، والقياس هنا يختلف عن القياس في المعيارية؛ فهو فطري مقتصر على مشابحة شيء بشيء. ويمتاز بواقعيته واتصاله المباشر بكلام العرب. وقد بنى سيبويه قياسه انطلاقاً من النظرة الاجتماعية للغة، ومعياره في ذلك هو القياس الطبيعي القائم على الفصاحة والاستعمال، الخالي من المنطق والفلسفة.

- ملامح الوصفية في نظرية دي سوسير:

تتجلى ملامح المنهج الوصفي في منظور دي سوسير للوحدة اللغوية؛ فقد وصفها بأنها "شبيهة بجزء ما من أجزاء المباني كالمسارية، فللمسارية من ناحية علاقة معينة بالسنادة الموجودة فوقها، ومن ناحية أخرى إذا كانت السنادة من النوع الدوري فإنها ستوحي إلينا بمقارنتها ذهنياً بسائر أنواع السواري، وكلها أنواع غير متواجدة في المكان"⁴.



ويتضح لنا من الاقتباس السابقة أن سوسير ينظر إلى شكل اللغة الخارجي بمعزل عن السياق الداخلي. فالبنوية تعني بالشكل، وتطمس الجوهر، وتؤمن بغائية العلاقات. ولذا فقد أشار سوسير لمفهوم الوحدة اللغوية بالعلاقات النسقية والجدولية؛ فالعلاقات النسقية هي تلك الحاضرة التي لا تكتسب قيمتها في السياق إلا من خلال مقابلتها لما هو سابق ولاحق بها. وتتمثل في العلاقات النسقية الإعرابية، والعلاقات القائمة على الشكل النحوي، وقد تمثلها سوسير على النحو الآتي:

الجدول 2: تمثيل للعلاقات النسقية بين الجمل.

الأطفال يلعبون في الحديقة		
الأطفال	يلعبون في الحديقة	
مبتدأ	خبر	إعرابية
مفردة	جُميلة	قائمة على الشكل النحوي

أما العلاقات الجدولية؛ فهي العناصر الغائبة فيزيائياً، الحاضرة ذهنياً، وتتمثل في العلاقات النحوية والاشتقاقية والمعجمية والدلالية والمورفولوجية. وهي موضحة في الجدول أدناه:

الجدول 3: تمثيل للعلاقات بين الجمل

قرأتُ القصة في المكتبة

قرأ	ت	ال	قصة	في	ال	مكتبة
قارئ	نا	نكرة	رواية	من	نكرة	مكتبة
مقروء	ا	تنوين	مقالة	إلى	تنوين	مكتبة الجامعة
قراءة	وا	إضافة	خاطرة	عن	إضافة	مكتبة جامعة
مستقرئ			قصيدة	على		
اشتقاقية	مورفولوجية	مقولة التعريف والتنكير	دلالية	جدولية حرفية	مقولة التعريف والتنكير	نحوية

وتتفاعل هذه العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية معًا لتشكيل النظام، وهذا النظام لا يدل إلا على ذاته؛ لأنه يدرس اللغة من منطلق عدها شكلاً لا جوهرًا، وينطبق ذلك مع تعريفه للسانيات في كتاب علم اللغة العام بأنها العلم الذي يدرس اللغة في ذاتها ولذاتها.⁵ واعتمد أيضًا مبدأ الثنائيات؛ فميز بين الدال والمدلول، والتزامية والتعاقبية، والاستبدالية والسياقية - التي أشرنا لها في السطور السابقة -، وثنائية اللغة والكلام.

وفي نهاية رحلتنا مع الوصفية، وبعد استعراضنا أسسها وملاحمها، واستشهادنا بإحدى نظرياتها الحديثة، نقول إن الاعتماد الصَّرف على الوصفية قد يجعل اللغة تنسلخ من علميتها؛ فالإقتصار على وصف اللغة لن ينتج لنا علمًا، ونبرهن على ما نقول من خلال استشهادنا بوصف موقف نيوتن وتفاحته الشهير، هب أن العلماء اقتصرُوا على تقرير سقوط التفاحة عموديًا إلى الأرض، فهل كان لقانون الجاذبية أن يُكتشف في هذه الحالة! أم أن تفسير العلماء لعلة سقوط التفاحة، وتعديهم الوصف المجرد لهذا الموقف هو ما أسهم في اكتشاف قانون الجاذبية! إن دراسة دي سوسير للغة باعتماد المنهج الوصفي ليست كافية للتبحر فيها وكشف خباياها. فكيف للوصفيين أن يبرهنوا على سبب الضمة الطويلة في مضارع كلمة (يصوم)، والكسرة الطويلة في مضارع كلمة (يبيع) على الرغم من أن كليهما في حالة الماضي تكتب بالفتحة الطويلة (باع - صام). ومن هنا تبرز أهمية الحديث عن منهج آخر، تناوله تشومسكي في دراسته للغة؛ وهو المنهج التفسيري.

● التفسيرية.

- النشأة والمفهوم والأهمية.

لم تكن الممارسات العلمية للسانيات في زمن سوسير قد اتضحت بعد، فقد عدّها البعض أنها منضوية تحت مظلة العلوم الميتافيزيقية التي لم يُفصح عن كنه أسرارها بعد. إلى أن جاءت التشومسكية وأشياءها بمنهجها التفسيري

الذي كان هدفه دراسة وبحث ما يدور في ذهن المتكلم السليقي، فانتقلت اللسانيات من مجرد بحثها عن حقائق اللغة إلى الخوض في غمار المادة اللغوية، ونقلت اللغة بذلك إلى التأويل والتفسير بعد أن أصبح مجال دراستها هو السياق الداخلي للغة، وما يدور في ذهن المتحدث من عمليات تسهم في تنفيذ اللغة على شكل الكلام؛ إذ تتحول البنى العميقة لبنى سطحية عند تطبيقنا لعدد من القواعد التحويلية. فالبنية العميقة عند تشومسكي تعمل عمل المدخل للمكون الدلالي، وتمثل البنية السطحية دور المدخل الفونولوجي. وتهدف اللسانيات في هذا المنهج إلى تحليل القواعد النحوية التي تتيح للمتحدث معرفة لغته بشكلها ومضمونها. فالإنسان في منظور التوليدية يولد وهو مجهز بالكليات النحوية التي تتيح له إمكانية إنتاج اللغة وفهمها في كل مجالاتها؛ ولهذا فإن اللغات البشرية تتسم بالإبداع، ويقول تشومسكي في هذا الصدد: "إن الإبداع في اللغة هو أهم ما يميز الكفاية اللغوية للفرد، وهو يعني إنتاج جمل جديدة لا حصر لها، ويفهمها المتلقون في الوقت نفسه رغم خلوها من التشابه مع الجمل المألوفة"⁶.

- تطبيقات المنهج التفسيري.

تقدم المفعول به على الفعل:

تكمن وظيفة اللسان في المنهج التفسيري في ملاحظته الظاهرة اللغوية، وينتقل منها إلى مرحلة المعلومات وترتيبها، ليضع بعدها الفرضيات التي تفسر وتحلل المعطيات اللغوية. ولتوضيح المقصود من ذلك؛ سيفترض التفسيري أن كل جمل اللغة مرجعها واحد، إلا أنه ثمة جمل قد تحدث فيها عدد من التحويلات سواء أكان مرجع هذه التحويلات تركيبياً أو دلالي، وسيعرّج بعدها على مرحلة صوغ القواعد التي تسهم في تفسير التحويلات الحاصلة. وسنعرض عدداً من الأمثلة التي توضح وتفسر ما ذكرناه.

I. قدمت الطالبة البحث.

II. الطالبة قدمت البحث.

III. البحث قدمت الطالبة.

IV. البحث قدمت الطالبة. (وليس المقال)

عند ملاحظة الباحث للمعطيات السابقة، سيفترض أن الجمل الصحيحة في اللغة هي التي تكون بنيتها (ف فا مف) أو (فا ف مف)، كما في المثال (I) و (II). ولتحقق من صحة فرضياته فإنه سيوسع معطياته ويضع بنية ثالثة وهي (مف ف فا) كما في (III)، وهنا سيدعم فرضيته الأساسية من خلال اكتشاف رفض المتكلم لهذه الجملة. بيد أن ذلك لن يغنيه عن تجاوز هذه المرحلة - تصنيف المعطيات - إلى مرحلة التحليل، ثم صوغ القاعدة؛ لاختبارها على معطيات أخرى. وهنا سيفترض أن الجملة (III) غير صحيحة؛ لأنها اخترقت قاعدة عدم تقدم المفعول به على الفاعل في الجملة، وسيواصل سيره متوسّعاً في المعطيات اللغوية، داحضاً القاعدة

السابقة من خلال القاعدة الفرعية التي تشترط التبعية في حالة تقدم المفعول به على الفعل، كما في مثال (IV).
فبهذه الحالة يكون النحو ملائماً للمعطيات.

الالتباس التركيبي.

فسر تشومسكي الالتباس التركيبي حوسبياً من خلال التمثيل الهرمي للتأويلات المحتملة للجملة الواحدة، وأرجع مصدر هذا الالتباس إلى مستوى خطية البنية التي تعد جزءاً من النظام الحسي الحركي. وتنظر النظرية التوليدية إلى خطية البنية على أنها عملية منفصلة عن النحو ومستقلة في منظومتها. وقد تبدو ظاهرة الالتباس التركيبي نقيضة من نقائص اللغة؛ لأنها تلعب دوراً في الفهم الصحيح للجملة. فاللبس الذي قد يحدث في الجمل وينجم عن فهم خاطئ، سيؤدي إلى فعل خاطئ بالضرورة، ونرى توضيح هذه الظاهرة في المثال الآتي:

I. [رسمت الفتاة لوحة وهي تلعب بريشة صغيرة في الحقل.]

II. [رسمت الفتاة لوحة [وهي تلعب بريشة صغيرة في الحقل.]]

III. [رسمت الفتاة لوحة [وهي تلعب بريشة صغيرة] في الحقل.]

IV. [رسمت الفتاة لوحة وهي تلعب [بريشة صغيرة] في الحقل.]

نلاحظ فيما سبق أن الجملة الأم (I) حصل فيها الالتباس التركيبي؛ فالجملة احتملت ثلاثة معانٍ مختلفة. يُفهم من الجملة (II) أن الفتاة مستقرة في منزلها، وأخذت لوحة، ورسمت فيها بقلمها صورة لها وهي تلعب بريشتها الصغيرة داخل حقل الزهور. أما الجملة (III) فيُفهم منها أن الفتاة جلست في الحقل مع إحضار لوحاتها معها، ورسمت فيها صورة لها بينما كانت تلعب بريشتها الصغيرة. والجملة (IV) يُفهم منها أن الفتاة التقطت ريشة ملقاة في الحقل، واستفادت منها رسم لوحة لها وهي تلعب.

وبعد أن تتبعنا المنهجين المعياري والوصفي، وتوصلنا إلى أن كليهما منهج نقدي يحاول أن يجمع ما بين التراث اللغوي واللسانيات بطرق مختلفة، أتى المنهج التفسيري فعمّق مفهومي النقد والوصف، وتغلغل في بنية اللغة في محاولة منه لبناء نحو جديد خالٍ من التعقيدات التي كانت تشوب النحو العربي القديم.

● الخاتمة:

بعد أن استعرضنا التغيرات التي طرأت في منهجية دراسة اللغة، بدءاً من المعيارية، ومروراً بالوصفية، وانتهاءً بالتفسيرية. نقول إن التغير والتطور أمر فطري في كل أمور الحياة التي تعد اللغة جزءاً منها، فرحلة اللغة بين الجد والحفيد ما هي إلا نوع من هذا التطور الذي فرضته العصور في تقدمها. ونشبه اللغة بين العراقة والأصالة ومناهجها التي توالى عبر العصور باللغة بين الجد والحفيد. فالجد يرمز للمنهج المعياري المتمسك بعرفه اللغوي، والمتسلح بالشروط والضوابط المحددة لاستعمال اللغة، وينظر لحفيدة نظرة المشدود عند خروجه عن هذا العرف اللغوي. في حين يُعد الحفيد -التفسيري- تحرره من هذه الضوابط وإخلاله بالشروط المحددة للاستعمال اللغوي ما

هو إلا تماشيًا مع التطورات، وأخذًا بالأسباب. وقد خلصنا في ورقتنا التي استعرضنا فيها أهم النقاط المتعلقة بكل منهج من المناهج إلى استنتاج يفضي بأفضلية هذه المناهج، وهذا الاستنتاج يعكس رأيًا شخصيًا نتج عما قرئ عن هذه المناهج الثلاثة من مصادر متعددة.

• النتائج:

بعد الشوط الذي قطعناه في المقارنة بين مناهج دراسة اللغة، واستعراض النظريات المختلفة في كل منهج من هذه المناهج، نقول بترجيح المنهج الوصفي والتفسيري على المنهج المعياري في دراسة اللغة. فالمنهج التفسيري يشد عضده بالمنهج الوصفي؛ لأن النظر إلى اطراد وشذوذ الجمل في اللغة، دون دراستها أو ملاحظتها، أو إحداث أي عملية بها لن يُحدث تغييرًا في دراسة اللغة، ولن يسهم في تطورها. فالجمل تنقسم لبنيتين: سطحية، وعميقة. والبنية السطحية تكون بؤرة تركيز الباحث الوصفي، فيعكف على ملاحظتها، ووصفها، وتصنيف تراكيبيها، فيدرسها في سياقها الداخلي دون أن يتجاوز إلى السياق الخارجي. وبعد وصف اللغة وصفًا علميًا دقيقًا، يأتي دور الباحث التفسيري ليتجاوز الوصف بالتقدير إلى التفسير والتعليل؛ من خلال بحثه في البنية العميقة للجملة، فيدرس دلالتها، وعلاقة التراكيب ببعضها، ومدى تطابقها مع القواعد العالمية التي سنّها تشومسكي، ويدرس تقلباتها، وتأويلاتها المحتملة؛ ليصل من خلالها إلى المبادئ الموحدة التي تفسر صوابها. ولنؤكد على أن كلا المنهجين مكمل لبعضه، سنحلل المثال الآتي من وجهة النظر الوصفية والتفسيرية، ونعرج على دور المعيارية في هذا المثال؛ كبرهنة على ما استنتجناه.

- الابتسامة الصفراء عديمة اللون تشرح الدرس.

تعد الجملة السابقة مقبولة عند الوصفيين ومستساغة؛ لأنهم معنيون بملاحظتها ووصفها وتصنيف أجزائها. ومن ثم يترك الباب مفتوحًا للتفسيريين الذين سيدرسون دلالتها ومعناها ويفسرونها، فتكون هذه الجملة وفق دراستهم صحيحة في تركيبها، غير صائبة في دلالتها؛ لخلوها من المنطقية. فهم يعتمدون في دراستهم على الاستنباط العقلي. ولندعم استنتاجنا في دحض المنهج المعياري، فسننظر للجملة السابقة بنظرة الباحث المعياري، وسنرى أننا سنقتصر على إعطائها حكمًا ما، كأن نقول إنها شاذة، وتقع ضمن دائرة المحال الكذب من الكلام. ولا أظن أن هذا الحكم سيغير شيئًا في الجملة، أو يحدث تطويرًا في اللغة، أو يمهد الطريق لنظريات حديثة؛ لأنه متصف بالجمود الكلي، وغير خاضع للمناقشة.

• قائمة المراجع:

المؤلفات:

- نوزاد أحمد. المنهج الوصفي في كتاب سيويه. ط1. بنغازي: دار الكتب الوطنية، (1996م).
- هروم البشير. ملاحظات على قواعد النحاة. المنهل. (2014م).

- تمام حسان. اللغة بين المعيارية والوصفية. ط4. القاهرة: عالم الكتب. (2000م).
- تمام حسان. الأصول. القاهرة: أميرة للطباعة، (2000م).
- فردينان دي سوسير. دروس في الألسنية العامة. تعريب: صالح الفرماي وآخرون. الدار العربية للكتب، (1985م).
- فردينان دي سوسير. علم اللغة العام. ترجمة: بوثيل يوسف. ط3. بغداد: دار آفاق عربية. (1985م).
- قبائلي عبد الغاني. أثر اللسانيات الغربية على اللسانيات العربية الحديثة -التفسيرية عينة-. الجزائر: جامعة باتنة، (2017م).
- أبو بشر قنبر. كتاب سيويوه. ت: عبد السلام محمد هارون. ج1. ط3. القاهرة: مكتبة الخانجي. (1988م).
- محمد نبيل. المنهج الوصفي ومظاهره في اللسانيات الغربية الحديثة. مجلة الممارسات اللغوية. عدد 1. الجزائر: مخبر الممارسات اللغوية. (2013م).

¹ حسان، تمام. (2000م). الأصول. القاهرة: أميرة للطباعة. ص156-

² نبيل، محمد. (2013م). المنهج الوصفي ومظاهره في اللسانيات الغربية الحديثة. مجلة الممارسات اللغوية. عدد 1. الجزائر: مخبر الممارسات اللغوية. ص1-

³ أحمد، نوزاد. (1996م). المنهج الوصفي في كتاب سيويوه. ط1. بنغازي: دار الكتب الوطنية. ص33-

⁴ دي سوسير، فردينان. (1985م). دروس في الألسنية العامة. تعريب: صالح الفرماي وآخرون. الدار العربية للكتب. ص187-

⁵ دي سوسير، فردينان. (1985م). علم اللغة العام. ط3. ترجمة: بوثيل يوسف. بغداد: دار آفاق عربية.

⁶ البشير، هروم. (2014م). ملاحظات على قواعد النحاة. المنهل. ص6-